الفصل الثالث

جوانب يعقوب صروف

١ – المعلّم

ليس التعليم مهنة كما يزعم بعض الناس أو المترزقين وإنما هو هبة تعطى، وإن شئت فقل إنه دعوة من الموجه الكلى القدرة يمنحها لمن أعطى ليقوم على تثقيف النشء وتقويم عوجه . وتهذيبه على أقوم طريق وأصدق منهج المفضى به إلى سبيل المعرفة الحقة .

وهو وإن تخلّى عن التدريس فى مدرسة أوكلية أو جامعة فلم ينقطع عن التعليم فى المدرسة الكبرى الجامعة . مدرسة الناس ، ينشر معارفه على غير واحد من طلاب العلم والمعرفة سواء منهم الكبير أو الصغير . العالم والأديب ، المفكر والمتأدب بوساطة مدرسته السيارة و إن شئت فقل جامعته « المقتطف » التى أنشأها مع زميله ورفيقه الدكتور فارس نمر ثم انفرد هو بتعهدها بفكره وعقله وقلمه ؛ وقد كان لها الأثر الفعال عند الناطقين بالضاد وعند المستشرقين . وما أحرانا أن ننظر فيما نقله لنا ابن أخيه الدكتور فؤاد صروف قال : « إن الفرصة التى أتيحت له لتدريس طائفة من فروع المعرفة مكنت له فيما بعد أن يتابع بعناية سير العلوم الحديثة وتطورها . وإفراغ معانيها فى المقتطف فى بيان عربى يجمع بين وضوح المعنى وسلامة اللغة ، وقد كان حتى أواخر أيامه فى العقد الثالث من هذا القرن يطلع على الجديد فى علوم الطبيعة والكيمياء والفلك والإحياء فى واحدة أو أخرى من أمهات المجلات العلمية – مثل نايتشير – وينقل منها كل متخيّر إلى قرائه ولكنه كان يشكو فى الحين بعد الحين من التعقيد المطرد فى فروعها متى حاول أن يستعمقها لكنه لم يكف عن إيراد الجديد مبسطاً سليماً »[1]

(١) يعقوب صروف : العلم والإنسان طبعة بيروت دار العلم للملايين ص ١٣ .

وما تقدم نرى أنه بدأ حياته العملية بالتدريس وأنهاها بالتدريس ولكن على نطاق واسع . فقد نقل إلى طلابه أكثر عصارة فكره وما اتصل به من أبحاث العلماء والمخترعين والمفكرين والفلاسفة . بلغة سلسة واضحة صافية . ليس فيها لبس أو تعقيد ولا تحتاج إلى تأويل . كل هذا نقله بصدق وأمانة لا يعتورها تشويش أو تضليل أو تأويل بل صراحة ووضوح . وسنرى فيما نحن مقبلون عليه من تبيان جوانبه ما كان يرمي إليه من الخير في تحرير العقول من السفاسف بكل تحفظ وبرهان صادق .

رأينا في مجلّدات المقتطف أنه أفسح المجال للدكتور شبلي الشميل لأن ينشر بإيضاح مبرهن فلسفة ما شرحه بمختبر على فلسفة داروين ، وما كان رأي صروف بمناجاة الأرواح وغير ذلك من الأبحاث « الماورائية » . ولا نعدو الحقيقة إن قلنا : إن الدكتور يعقوب صروف كان عقلا واعياً وفكراً نيراً يقول ما يراه حقّاً بدون مراوغة أو تزلف . وكل ما قاله عنه رجال الفكر والأدب والعلم شهادة عدل تنطق بفضله وتعلن حقيقته الإنسانية[1] .

وقبل أن أختم بحثي هذا لا يسعني إلا أن أشير إلى ما قاله عنه تلميذه العلامة الكبير المرحوم جبر ضومط في مقال نشره في المقتطف[2] : « عرفته في صباي معلماً في برج صافيتا . وعرفته في فجر شبابي أستاذاً ومعلماً في الكلية الأميركانية ببيروت ثم في المقتطف . في تلك الكلية . وأخيراً عرفته في مصر في المقتطف أستاذاً ومعلماً ثم دكتوراً معلماً . فما زلت إذن منذ صيف سنة ١٨٦٩ إلى أن توفاه الله تلميذاً محبّاً لهذا الأستاذ الخالد ما خلد علمه وأدبه ونفسه » . ويصرف بعد هذه المقدمة إلى تبيان ما كان عنده من إخلاص لتلامذته وحب لعمله وشغف بالعلم ، وهو حلية الأستاذ الصالح والعالم الموهوب .

---

(١) راجع الكتاب الذهبي في تأبين يعقوب صروف .

(٢) المقتطف المجلد ٧٢ ص ٢٨٧ .

٢ ـ الأديب

ليس الأديب الذى يتعمد الصناعة قصداً بأديب . يغوص وراء المفردات والمترادفات فينتق لك مقالا حشوه التدبيج والترصيع والتورية والكناية والتشبيه ، ما عدا الاستعارات التى يظن أنها تمنح مقاله روعة وجلالا . وترفع به إلى عالم الفصاحة وتشده إلى حيّ البلاغة . فتقرؤه وتقرؤه وتخرج منه فارغ الوطاب ، ومثلك معه مثل من يمتص قنطار قصب ليتذوق منه درهم حلاوة . وقولى هذا لايقدح ببعض كتاب القرن التاسع عشر فعصرهم غير عصرنا . ومذاهبهم العلمية كانت متأثرة ببعض رواسب عصر الانحطاط فلا سبيل إلى لومهم . وإنما اللوم على من يسلك مسلكهم من أدباء عصرنا الحاضر وهو عصر السرعة والفكر لا التزويق والتنميق .

والأديب الحق عندى هو الذى يقدم لك بحسن بيانه وصفاء لغته فكراً وعلماً ومعرفة . والمطلع على مجلدات المقتطف الحافلة بالأبحاث القيمة والترجمات الموفقة . والأفكار الناصعة لا يسعه إلا أن يحنى الهام أمام مترجمنا ويصدع للحق فيقول : إنه كان من أولئك الكتبة والمفكرين الأفذاذ الذين يتحرون الصدق فيما يكتبون ويعلنون ويتخيرون الألفاظ التى تليق بالفكر الذى يرغبون فى إبدائه وطرحه على المجموع بدون تعمية أو تأويل بعيداً عن كل صناعة لفظية . وما ذلك إلا لأنه أديب راسخ القدم بالعلم يقول ما يعلم ويلتزم ما يفهم و « إذا كان الأدب ممنوّاً بالخلط والضلالة فقصد العلماء هو خير ما يرام له وهو طبه الذى يأتيه من غير داره إذا كانت داره مقفرة من دوائه »[1] . ولا ريب أن الأدب كان طبعاً فيه وقد أخذه عن جلة العلماء فى ذلك العصر كالشيخ ناصيف اليازجى والعلامة كارنيليوس فانديك ، وقام على تنمية ما أخذ لغة وأدباً يوم انتدب لتعليم البيان فى الكلية الإنجيلية السورية . ومن الذكريات التى لاأنساها ،

---

(١) من مقال لعباس محمود العقاد فى المترجم ـ المقتطف المجلد ٧٢ ص ٣٣ .

أنى كنت فى السنة الـ ١٩٣٦ أطلع فى مكتبة الجامعة الأمريكية لأعد تقريراً فرض علىّ . وكان المرحوم الأستاذ جرجس الخورى المقدسى جالساً إلى مكتبه — فى المكتبة الإسلامية — منصرفاً إلى عمله فأتيته مستأذناً ومستوضحاً عن بغيتى المفروض علىّ كتابته فأرشدنى إلى مجلد من مجلدات المقتطف بالإضافة إلى الهلال والمشرق . وبالمناسبة أخبرنى أن من أترجم له « يعقوب صروف » كان يروى لكثير من الشعراء جاهليين وإسلاميين وكان يكثر من مطالعة الأغانى وغيره . ولذلك استقامت لغته ووضح بيانه [١] . ومن كان هذا ديدنه فلا عجب أن يكون فى مقدمة الأدباء . ويقص علينا العقاد فى مقاله المشار إليه ما يأتى : « فحفظ شعراً كثيراً كان يضعه أحسن الوضع فى أماكن الاستشهاد من مقالاته الوصفية ونظم شعراً كأجمل ما نظم العلماء فى الحكمة وسر الوجود » [٢] .

وعلى ما تقدم أقول : إن « يعقوب صروف » عرف سر الكلمة فاقتنصها وجعلها لؤلؤة فى عقد التجدد الذى أظهره بكل ما كتب وديج يراعه بدون أن يدعو إليه . بل جعله فى مقتطفه مرآة تظهر الحسن فيتبينه الأديب والمتأدب والمتعلم والعالم فيأخذونه بدون أن يشعروا ويستنّوا سنته بالجمال مارأوا . والجمال محبوب ومطلوب أينما وقع . ولا ريب أن الأديب المنصرف إلى أدبه وعلمه يظهر ما عنده وينتظر الحكم عليه ممن يطالعونه . وإليك رأياً وجيهاً لعلامة المؤرخ المرحوم عيسى إسكندر المعلوف بصروف قال : « ولكنه مع كل تفرعات مباحثه وتوسعه فى فنون الصحافة التى خصت بها الهلال الكبيرة ووقوفه على ما يكتبه أرباب الهلال الأجنبية الكبرى ومكاتبوها قد أبقى لنفسه حصة وافية من تحليل الألفاظ وفقه اللغة والأوضاع وإرجاع الكلمات إلى أصلها وإصابة الرأى بمعرفة مظانها فأبدع فى ما أنشأ أو ما اختار من الكتابات والمعربات إلى غير ذلك مما لا محل لتفصيله الآن فنترك الحكم فيه لمطالعى المقتطف وكلهم

(١) من مقال للأستاذ جرجس الخورى المقدسى .

(٢) المقتطف مجلد ١٢ ص ٣٣ .

من العلماء الأعلام والأدباء العظام » [١] .

إلى هنا يحط المطاف بأدب صروف لنتنقل إلى جانب آخر وهو :

٣ ـ المجدّد فى اللغة

إن كل من اطلع على أدب عصر الانحطاط . وقد حفظت لنا المجاميع الأدبية والرسائل الديوانية الشيء الكثير منه ، يعلم أن اللغة العربية قد منيت بالضعف والركاكة ولا سيما فى العصر التركى . وأصبحت أقرب إلى العامية منها بالفصحى ، فيها الرطانة والابتذال كما نرى فى الوثائق والصكوك التى كانت تكتب بالعربية أيام المغول والمماليك والعثمانيين ؛ وفى عهد أولئك انحط الأدب العربى إلى أسفل الدركات وذلك لشيوع التركية فى المخاطبات والمراسيم والدواوين . وتساط الجهل على العقول . والتقليد على المعانى ، والصناعة المقيتة على الأساليب . ولكى نبين ما ألمعنا إليه نرى لزاماً علينا أن نقدم نموذجاً هو [٢] « قدوة الأماجد الكرام متسلم الشام حالاً أحمد باك . بعد التحية والسلام بتزيد العز ولإكرام المنهى إليكم أنه نهار السبت الواقع فى ٩ صفر سنة ١٢٤٨ الساعة بالسبعة من النهار كان ابتدا وصول عساكر المنصورة التى ساقته وكابنا ببحيرة حمص وبتلك الساعة نظرنا قدوم عساكر خيل الترك المحتشدين لمعونة الباشاوات . . . . »

مما تقدم نلمح انحطاط اللغة وركاكة الألفاظ وعلى هذا النمط مشى غير واحد من كتبة ذلك العصر ولم تكن اللغة مصونة نوعاً إلا فى ديوان الأمير بشير الشهابى الكبير . فقد جمع ديوانه أمثال بطرس كرامة وناصيف اليازجى ونقولا الترك وغيرهم .

---

(١) المقتطف ج ١ المجلد ٧٣ ص ١٨٨ .

(٢) مذكرات تاريخية بقلم أحد كتاب الحكومة الدمشقيين نشره الخورى قسطنطين الباشا المخلصى مطبعة البوليسين ـ حريصا لبنان سنة ١٩٢٦ ص ٦٤ .

وعرفنا مما ألمعنا إليه فى الأبحاث السابقة أن المدارس والجرائد والمجلات والمطابع انتشرت فى عصر النهضة إلا أن الرطانة بقيت تسود بعض ما كان يكتب فى ذلك الحين فجرد الشيخ إبراهيم اليازجى قلمه لتسديد أقلام الكتاب كما نرى ذلك فى كتابه [١] « لغة الجرائد » ووضع هو وفارس الشدياق وإبراهيم الحورانى بعض مسميات عربية لبضع كلمات أعجمية . ولما أنشئ المقتطف تجرد صاحبه الدكتور صروف لوضع كلمات عربية لمسميات علمية . إنجليزية وفرنسية كالأحافير وعلم النفس والمثل الأعلى ومناجاة الأرواح وتنازع البقاء والتعضية وما إلى ذلك [٢].

وإن نحن قابلنا بين ما كان يكتبه الكتبة منذ خمسين سنة وبين ما كتبه مترجمنا رأينا أثر ذلك التجديد والنهوض باللغة إلى المستوى الذى كانت عليه قبل عصر الانحطاط . فكان يتناول صلب الموضوع بدون مقدمات بأسلوب حديث لا يتخير غير الألفاظ السهلة القريبة من الفهم ، فلا يحتاج القارئ إلى أن ينقب عنها بالمعاجم ليدرك معناها [٣] .

ولا نكران بأن الفضل يرجع إليه فى تسهيل الأبحاث العلمية مع المحافظة على قواعد اللغة . وعلى غراره مشى غير واحد من كتابنا العصريين . وإليك ما قال الأديب الكبير الأستاذ المرحوم مصطفى صادق الرافعى : « انتهى شيخنا (صروف) فى العهد الأخير إلى أن صار يعد وحده حجة اللغة العربية فى دهر من دهورها العاتية . لا فى الأصول والأقيسة والشواذ وما يكون من جهة الحفظ والضبط والإتقان بل فيما هو أبعد من ذلك وأرد بالمنفعة على اللغة وتاريخها وفنونها بل فى ما لا تنتهى إليه مطمعة أحد من علمائها وكتابها وأدبائها . إذ وقع الإجماع على أنه انفرد فى إقامة الدليل العلمى على سعة العربية وتصرفها وحسن انقيادها وكفايتها . وأنها تواتى كل ذى فن على فنه . وتمادّ كل عصر بمادته وأنها من

---

(١) راجع كتابنا أنواع التفكير عربى : الشيخ إبراهيم اليازجى . طبعة [illegible] بمصر .

(٢) انظرها فى مجلدات المقتطف الأولى المجلد ٧٢ ص ١٥٩ وفى كتب [illegible] علم النفس .

(٣) راجع المختارات .

دقة التركيب ومطاوعته مع تمام الآلات والأدوات بحيث ينزل منها رجل واحد بجهده وعمله منزلة الجماعات الكثيرة فى اللغات الأخرى كأنها آخر ما انتهت إليه الحضارة قبل أن تبدأ الحضارة »[1]. وعلى الجملة فإن اللغة فى رأى صروف « جسم حى نام » وشأن من يحاول منعها من النمو شأن الصينيين الذين يربطون أقدام بناتهم لكى لاتنمو وتبلغ حدها الطبيعى ، ولكن إذا كان النمو مشوهاً فلابد من تقييده وتهذيبه .

٤ ــ العالم الفلكى

كان علم الفلك قديماً ضرباً من التنجيم وقد أشار إلى ذلك أبو تمام فى قصيدته التى مدح بها المعتصم يوم فتح عمورية قال :

والعلم فى شهب الأرماح لامعة
بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما
صاغوه من زخرف منها ومن كذب ؟

* * *

وصيروا الأبرج العليا مرتبة
ما كان منقلباً أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهى غافلة
ما دار فى فلك منها وفى قطب

ولم يستقم علماً قائماً بنفسه ، منزهاً عن كشف البخت والتنجيم إلا مع قلة من العلماء أمثال « تيخو براهى » وإسحاق نيوتن مكتشف أسرار الجاذبية

---

(١) المقتطف المجلد ٧٢ ص ٢٣ .

بين الأجرام السماوية ومع إنشتاين الذى قال : إن السرعة بالدوران هى التى تحفظ الأجسام فى الأجواء، وغيرهم من جلة علماء الفلك . ولا يخفى« أن هذا العلم هو أعوص العلوم لأنه مبنى على أدق القوانين الرياضية والطبيعية»[1]، فجاء مترجمنا وجمع ما كان ينشره فى مقتطفه من مقالات وأبحاث فى هذا العلم فنقحها وأضاف إليها فصولا جديدة فى وصف البروج الاثنى عشر حسب شهور السنة ، وقد أطلق عليها علماء الفلك أسماء مختلفة ، وهى مجموعة فى بيتين من الشعر هما :

حمل الثور جوزة السرطان
ورعى الليث سنبل الميزان

ورمى العقرب بقوسٍ لجدى
فاستقى الدلوُ حوته بأمان

كما أن الشيخ ناصف اليازجى جمع أسماء السيارات التى تدور حول الشمس كما كانت معروفة فى زمنه بحسب ترتيبها الأبعد إلى الأقرب قال :

تلك الدرارى زحل فالمشترى
وبعده مريخها فى الأثر

شمس فزهرة عطارد قمر
وكلها سائرة على قدر

وجمع أبراج السماء بقوله :

من البروج فى السماء الحمل تنزل فيه الشمس إذ تعتدل
والثور والجوزاء نعم المنزله وسرطان أسد وسنباه

---

(١) بسائط علم الفلك تأليف الدكتور يعقوب صروف مطبعة المقتطف والمقطم بمصر ص ١ .

كذلك الميزان ثم العقرب

قوس وجدى دلو حوت يشرب[١]

ونرى مترجمنا فى كتابه « بسائط علم الفلك » قد أثبت فى آخر الكتاب معجماً يبين فيه كل ما عثر عليه من أسماء النجوم وأسماء صورها بالعربية وما يقابلها بالفرنجية ، ولا ريب أنه كان رحمه الله واحداً من أولئك الذين أولعوا بالعلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والأبحاث الفلسفية ، درسها ودرّسها حتى أصبحت جزءاً من حياته تجرى مع كريات دمه ، فانقادت له انقياد الطفل إلى أمه ، فما كان يرى فيها شيئاً من الصعوبة ، وبذلك يقول الأستاذ منصور جرداق[٢] : « اتصف الدكتور صروف منذ صغره بسمو المواهب العقلية فقد كانت لديه دروس الرياضيات الابتدائية والطبيعيات كالحساب والجبر والهندسة والمثلثات والكيمياء والفلسفة الطبيعية وعلم الفلك بمثابة قراءة القصص التاريخية والفكاهية ، ومسائلها وقضاياها بمنزلة الأوليات ، فلم يكن يجهد نفسه بدرسها وهو طالب (تلميذ) إلا قليلا لأنها كانت سهلة عليه واضحة وجلية فى ذهنه بينما كان غيره من أبناء صفه يتعب كثيراً فى درسها ويصرف معظم وقته فى تحضيرها والاستعداد لها »[٣] . والناظر فى كتاب بسائط علم الفلك يرى أنه عرض إلى الآراء القديمة فأوضحها على علاتها ثم انصرف إلى تسهيلها وأوضح الآراء الجديدة فى الفلك مبيناً حركات الشمس والسيارات ونسبة بعضها إلى البعض الآخر ، وتحدث عن ناموس الجاذبية وسعة الكون وأبعاده وفى ذلك الفصل يقول : « لم يكتشف العلماء حتى الآن حقيقة هذه الجاذبية ولا فرضوا لتعليلها فرضاً ينطبق على كل أفعالها »[٤] ؛ ومنها انتقل إلى سبب الكسوف والخسوف وتناول الشمس والقمر والسيارات وذوات الأذناب التابعة للنظام

---

(١) مجمع البحرين المقامة الفلكية طبعة دار صادر ودار بيروت ص ١٧٠ .

(٢) منصور جرداق أستاذ الرياضيات وعلم الفلك فى الجامعة الأميركية فى بيروت سابقاً توفى سنة ١٩٦٢ .

(٣) المقتطف المجلد ٧٢ ص ٤١٧ .

(٤) بسائط علم الفلك ص ٢١ .

الشمسى ثم انتقل إلى النجوم الثوابت وبعض ملابستها المتجمعة منها والمتفرقة ولم يغفل السديم فعرض عرضاً علمياً واضحاً وبين آراء العلماء فى تكوّن أجرام السماء، بلغة صافية سهلة لايعتورها تعقيد؛ فقارئ الكتاب يلم إلمامة صحيحة بعلم الفلك تمكنه من معرفة ماورد فى الشعر العربى ولا سيّما عند أبى العلاء المعرى من ذكر النجوم والأبراج ومواقعها ، ويتفهم ما ينشره العلماء من أبحاث فى الحاضر ، ويقول: فقد مهد طريق المعرفة إلى غير واحد من مطالعيه .

٥ ــ المترجم

إن أصعب ما يعنى به الكاتب والباحث من إرهاق هو فن الترجمة الصحيحة ، فهى تستدعى الأمانة فى نقل الفكر بدون زيادة أو نقصان ، والمتجرد لها يحتاج قبل كل شىء إلى موهبة عقلية وفكر نير وسعة فى الاطلاع وإتقان لفنه ، واللغة التى يترجم منها . ولا يستقيم ذلك إلا لمن أوتى علماً ومعرفة وجلداً [١].

ولا ريب أن التأليف أسهل من الترجمة، ولماذا ؟ لأن الترجمة تحتاج إلى دقة فى الفهم ، ولا سيما التعابير اللغوية والعلمية . ولا يخفى أن لكل لغة أسلوباً واصطلاحات خاصة ، تصعب ترجمتها حرفياً . فعلى المترجم أن يأتى بما يماثلها فى لغته وخصوصاً الأمثال . ويضعها فى المكان اللائق بها بحيث لايبتعد المعنى عن ذهن القارئ ، ولذلك قال صروف : « اللغة جسم حى نام . وشأن من يحاول منعها من النمو شأن الصينيين الذين يربطون أقدام بناتهم لكى لا تنمو وتبلغ حدها الطبيعى ، ولكن إذا كان النمو مشوهاً فلا بد من تقييده وتهذيبه»[٢].
ثم ينصرف إلى إبداء رأيه فى الترجمة فيعرضها فى أربعة قواعد وهذا ملخصها :

---

(١) راجع المختارات .
(٢) المقتطف ج ١ مجلد ٧٠ ص ٤٨١ .

القاعدة الأولى : الكلمات الأعجمية تترجم بما يرادفها فى العربية ويؤدى المعنى ، وإن لم يكن لها مرادف وكانت من الكلمات العلمية تبقى على لفظها . فهو يستعمل كلمة « روماتيزم » عوض داء المفاصل الذى يصيب اليدين والرجلين ، وقلما يخطر على بال غير الأطباء ، أنه يصيب الظهر ؛ فإذا كان المقصود إصابة الظهر فضّل كلمة « روماتيزم » . و « زنك » بدل توتيا مراعياً بذلك كله مقامات الكلام من التخصيص والتعميم وما يوقعه من فهم السامع والقارئ .

القاعدة الثانية : الكلمة التى لايعرف لها معنى مرادفاً فى العربية ويرجح أن لها معنى بحث عنها فى مظانها مثل كلمة Mereenaries فيرادفها المسترزقة أى الجنود الذين يستأجرون ومثل كلمة Tributary فيرادفها كلمة ناصر والجمع نواصر : أى النهر الصغير الذى يصب فى نهر كبير، ومن قوله : « إذا وجدنا أن اللفظ الأعجمى أو العامى الذى ليس عربياً كثير الشيوع واستعمال غيره يضيع الفائدة على القراء اضطررنا أن نعدل عن اللفظ العربى الفصيح إلى اللفظ الأعجمى أو العامى » .

القاعدة الثالثة : الأعلام الأعجمية الشائعة الاستعمال يبقيها على استعمالها سواء كان قديماً مثل إبراهيم ويوسف أو حديثاً مثل ألمانيا وأمريكا وفرنسوى ووليم وهنرى . والأعلام التى لم تشع على الألسنة يكتبها على لفظها عند أهلها ، أو بأقرب ما يكون إلى لفظها الأصلى مثل « دارون » و « بيكنسفيلد » و « كرومر » و « هارفى » و « روزفلت » .

القاعدة الرابعة : النكرات التى ليس لها مرادف فى العربية إذا عرّبها الكتاب وشاعت فإنه يجاريهم ولا يحاول وضع ألفاظ أخرى لها ، وقد تابع أساتذة الجامعة الأمريكية فى بيروت ، بتعريب الأكسجين والهيدروجين والنيتروجين والفسفور إلخ كما أنه جاراهم فى استعمال « مغنط » فعلا من المغنطيس و « كَهْرَب » من الكهرباء و « ترفن » فعلا يراد به كسر جانب من

عظم الجمجمة بعملية جراحية، كما أنه أبقى كلمة «تلفون» على لفظها لشيوعها بين أصحاب المصالح، وينصرف إلى القول: « هذا من حيث الألفاظ الأعجمية أما المعانى فإما أن تكون حقيقة أو مجازاً، وكل منهما إما مألوف عند العرب وخلفائهم، وإما غير مألوف؛ فهذه أربعة أنواع من المعانى المختلفة، الأوّل الحقيقى المألوف مثل ركوب الفرس، وشرب الخمر، فالمعانى التى من هذا القبيل نترجمها بما يدل على معناها فنقول: شرب الشاى وشرب الافسنت وشرب سرّ الملك أو نخبه واستخرج الراديوم واستقطر الفنول.

والثانى الحقيقى غير المألوف نترجمه بلفظه أو بما يقاربه كصوّت له وأطلق المدفع فإن التصويت فى الانتخاب معنى جديد لم يكن معروفاً على الصورة الحاضرة وكذلك إطلاق المدفع »[1]، على أنه يبذل جهده فى استعمال ما هو عربى صميم إن وجده فى مظانه وإلا عدل إلى استعمال المألوف والمفهوم.

وعلى الجملة فإن الترجمة ليست بالأمر الهين فهى أصعب من التأليف كما قدمنا، لأن المترجم أسير معانى غيره مقيد بها مضطر إلى إيرادها كما هى على علاتها بصدق وأمانة وإخلاص؛ ومن تصدى لها وهو غير ضليع من اللغتين لغته واللغة التى يترجم منها كبا به جوادُه وباء بالخسران. وقد صدق من قال:

لايعرف الشوق إلا من يكابده
ولا الصبابة إلا من يعانيها

إلى هنا يحط بنا المطاف بعلامتنا الكبير يعقوب صروف وهو بحق أبرز رجال النهضة العلمية الحديثة، فقد تناول كما رأينا الطبيعيات والكيمياء والفلسفة، والتاريخ، وقد كان من رجال التاريخ، فقد استقرى الحفريات ووصف عادياتها واقتبس أخبارها من مصادرها الأصلية وإننا لنستطيع أن نستخرج من مجلدات المقتطف كتباً قيمة فى علم الآثار ولا سيما الآثار الفرعونية.

---

(١) المقتطف ج ١ مجلد ٧٠ ص ٤٨٦.

ولا يسعنى بعد ما قدمت إلا أن أردد قول الشاعر :

هذه آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

٦ ـ الشاعر

إن لبنان بطبيعته قصيدة قوافيها تلك الروابى والآكام، وابن لبنان بسليقته يحسّ الجمال ويتبينه بجباله وتنوّع مناظره ، فحيث اتجهت رأيت منظراً حسناً لاتقع العين على مثله :

تحبّر الحسن فى رباه وبا ت الحسن فيه محبّر الأنحاء

ولا عجب أن رأينا ابن لبنان يتعشق الشعر ويسعى إليه بقلب نابض وعين وقّادة وروح شفافة ، تطرب لسقسقة الماء وحفيف الأوراق وهدير النبع المتدفّق النابط من قلب الأرض بنغمة موسيقيّة ولحن ناعم ، حنون حيناً وصاخب حيناً آخر .

وقل أن ترى رجلا فى لبنان لا يروى الشعر ، فهو إن لم يروه فصيحاً نطق به عاميًّا ، ومن لاينظمه فصيحاً نظمه عاميًّا كقول أحدهم فى حسناء ضاحكة :

ضحكتْ لى بتسمتيلها جوارح قلبى بعتّيلها
بنجد لها من عضامى سرير وبيعت روحى تهزّ لها (١)

هذا قول الأمىّ أو الراعى وهو وراء بقره أو ماعزه فكيف بقولك بمن كان عنده مسكة من العلم والمعرفة . وقد عرفنا فى ما أثبتناه أن « يعقوب صروف » قد أسندت إليه « الكلية الإنجيلية السورية » وهى اليوم « الجامعة الأمريكية » منصب تعليم البيان واللغة العربية ، ولا يخفى ـ كما قلنا ـ ما يحتاج إليه أستاذ هذين الفرعين من بحث وتنقيب فى مضامين الكتب الموثّقة

(١) يقرأ باللهجة اللبنانية .

قبل إلقاء الدروس على الطلاب ، فكان ذلك سبيلاً له لأن يقف على أصح المذاهب اللغوية والنحوية والبيانية ليقدمها مائدة شهية لتلامذته ، وكفى أن نقول إن الأستاذ المرحوم « جبر ضومط » كان من تلامذته . وكذلك الأستاذ الكبير أنيس الخورى المقدسى وغيرهما وهم كثر لا يسعنا تعدادهم فى هذه الدراسة .

وإن نحن أردنا أن نبحث ما يبذله الأستاذ الجامعى من جهد فى مطالعة المجاميع الأدبية والدواوين الشعرية والكتب اللغوية ، عرفنا مبلغ ما يستوعبه ذلك الأستاذ من علوم اللغة وآدابها ، وإذ ذاك نقول إننا أمام رجل ثابت القدم فى اللغة والأدب واسع الاطلاع ، قد سبر غور اللغة فتخير ألفاظها المتناغمة مع أختها لينقل بها المعرفة إلى أدمغة الراغبين فيها ، الجادين فى إتقانها بصدق وأمانة لا يعتورها تعقيد أو تحذلق ، فقد صفت ديباجته ورقت ألفاظه ، واستقام بيانه ، بحيث لا ترى فى كل ما كتب ونظم ركاكة أو معاظلة ، فقد كان كلامه مطابقاً لمقتضى الحال مع فصاحته . وهنا لا بدّ لى من أن أقول كلمة فى الشعر وما صار إليه فى وقتنا الحاضر .

٧ ـ أدبنا المعاصر

إذا ألقيت نظرة على أدبنا المعاصر وشعرنا المبتور ، أخذتك رجفة أسى على ما صار إليه أدبنا الذى أراد أن يقلد الغرب فى أوزانه فباء بالخسران ونسى أن لكل لغة مقوماتها وأساليبها وبيانها ، والشعر العربى مميز فى موسيقاه ووزنه وصوره وأخيلته وكلها تتراوح بين الحقيقة والمجاز .

والشعر ما كان فى وقت من الأوقات كلمات مقطعة كقول أحدهم :

سأم حياتى وحبى منهار
أسهر ليلى وأنام النهار
من أجلك يا حبيبتى

فما معنى هذا القول وما هو الجمال الذى يكتنفه والخيال المحلق والشعر الموهوب ؟ أليس هذا هراء وقولاً لا معنى له .

زعم البعض أن الشعر موسيقى يتناول اللفظ دون المعنى ، ويكفى أن تكون الكلمة رشيقة خفيفة سواء أدت المعنى أم لم تؤده ، وعندهم أن جمال الصوت ونبراته والجرس يلبسها الحلة اللائقة بها ، وينزلها منزلة ما يسمونه شعراً ينكبون به الأدب ويسفون به إلى الابتذال ، وفاتهم أن الشعر وإن شارك الموسيقى فى بعض نواحيها ؛ فهو مقيد بالمعنى الذى يشارك فيه العقل لاستكمال اللذة ، والموسيقى فى بعض نواحيها ما كانت يوماً شعراً على إطلاق المعنى ولن تكون ، لأن الشعر مشارك لها باللحن والإطراب ، والموسيقى لا تشاركه بالمعنى ، وكم من أبيات تستوعبها لمعناها ومبناها وترقص لها طرباً . وأنت بعيد عن لحنها الموسيقى ، وذلك بين ظاهر لكل من أوتى سمعاً مرهفاً وذوقاً رفيعاً . لأن لذة الموسيقى تتناول الأذن والنفس معاً وهما يطربان باللحن الحسن والتوقيع المرقص ، فتسكر الروح وتنخطف إلى ملأ تحسه إحساساً روحيًّا ، لاتقدر أن تعبر عنه بكلمات ؛ فالموسيقى روح والروح لا تلمس باليد ولا يجرى عليها التصوير ، فجمالها ألحان وقعتها نفوس موهوبة أعطيت هبات تظهرها أصواتاً ، ويتعذر عليها أن تظهرها كلمات ؛ بعكس الشاعر الذى أعطى أن يجمع بين الصفتين اللحن والمعنى ، والشعر الحقيق الخالد إن عرى عن صفة من هاتين الصفتين كان صوتاً يضمحل ويتبدد فى تموجات الهواء فلا يكتب له خلود ، كما فى قول بعضهم :

سيرى على مهـــل يا نبضـــة الحب
خفق النعال ضحى كالخفق فى قلبى

قلت إن الشعر يشارك الموسيقى لأنه لفظ يعذب فى الأذن سماعه ، وتطرب له النفس . ويسوغ معناه العقل ؛ فهو غير مقتصر على اللحن حسب ، لأن المشاعر كلها تشترك باستساغته . فتأخذ كل شاعرة ما يناسبها ، ومن مجموعها

يتذوق جمال القول واللحن ، فشاعرة العقل تتطلب المعنى . وشاعرة السمع تتطلب الجرس ، وشاعرة الحس تتطلب الكلمة اللينة البينة العذبة ، وهى تقع فى النفس موقع الخمرة الدابة فى الأعصاب فتخدرها . وتستوحى النفس نشوتها ، وعمل اللحن فى الشعر كما يقول أبو الوليد بن رشد فى تلخيص كتاب أرسطو هو : « أنه يعد النفس لقبول خيال الشيء الذى يقصد تخيله ، فكأن اللحن هو الذى يفيد النفس الاستعداد الذى به يقبل التشبيه والمحاكاة للشيء المقصود تشبيهه » .

وليس كل ما يرد على القريحة يجب أن يقال . فقد يكون الشاعر فى خلوة يردد كلمات يطرب لها ويرى فيها جمالا أوحت به وحشة المكان ، ولكن بعد أن يجرى تلك الكلمات على محك العقل يرى ألا معنى لها . ولأمر ما قيل لبشار بن برد : « بم فقت أهل عمرك وسبقت أدل عصرك فى حسن معانى الشعر وتهذيب ألفاظه ؟ » قال : « لأنى لم أقبل كل ماتورده على قريحتى ويناجينى به طبعى ويبحثه فكرى » ، وكأنه عرف أن الصوت الواحد والمنظر الواحد لا يؤثر فى السامعين والناظرين أثراً واحداً ، وليست الحواس وحدها تكفى فى إدراك الجمال ، بل لا بد معها من العقل ، فالحواس وحدها تستطيع أن تدرك الحركات والأشكال والأصوات والألوان على انفرادها ، ولكن لابد معها من الفكر والشعور ليربطا بعضها بالبعض الآخر ويكونا مجموعة واحدة متناسقة الأجزاء . وبهذا أيضاً يختلف الإنسان عن الحيوان . فالحيوان يستطيع أن يدرك ألوان صورة ذات ألوان كصورة العذراء لرفائيل ويسمع الشعر ولكنه لا يدرك ما يدل عليه ذلك من عشق ولا يشعر بما يمثل من عواطف .

وهذا ما يؤيد ما ذهبت إليه من أن الشعر ليكون شعراً حيًّا يجب أن يكون فيه لجميع الشواعر الإنسانية مشاركة ، وقد تنبه إلى ذلك علماء الشعر فى العصر العباسى فقال قدامة بن جعفر : « لما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعانى كان أحسنهم من أتى بشعره بأكثر المعانى » .

ولقد أعطى الشاعر صفة لم تعط لغيره ، فهو الأمير المتصرف ببيانه والغائص على المعانى الجليلة ، وقديماً قال الخليل بن أحمد: « الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه كيف شاءوا ، وجائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده » فأنت ترى أن الشاعر لم يطلق له الكلام إطلاقاً دون تقييد فى المعنى وأن كلمة اللاوعى كلمة يفهمها البعض على غير حقيقتها ، فهذه قصائد ابن الفارض إمام الرمزيين واللاوعى ، ألم يعطنا المطرب الجيد من الشعر ؟ أما كان يخطف متجرداً عن المادة فى ما قالوا عنه ويعود إليها وملء فمه قصائد فيها كل جميل حسن سواء فيها نعت اللفظ أو نعت المعنى ، وإذا كان المراد من كلمة « اللاوعى » الهذيان فيكون المحموم شاعراً وكل مجنون شاعراً ، ويا لخيبة الشعر عندئذ ويا لضيعة الأدب الحقيقى من أدب هذا العصر ! وإنه ليعجبنى قول الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين : « المطبوعون على الشعر هم الذين تأتيهم المعانى سهلا ورهواً ، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالا »، ومن الأدباء من يقول وحجته أن الشاعر كالمصور الذى يقدم لك خطوطاً رمزية تريك الجمال ولا تدركه . قلت : إنهم على حق فى ما يذهبون إليه ولكن هل الخطوط التى يرسمها المصور البارع خارجة عن حد أصول الفن المقررة ؟ أو تراه جردك من العقل بخطوطه وقصر فنه على ناحية نفسية واحدة ؟ ألم يصرفك بما رسم قلمه إلى تداعى صور رجعت بك القهقرى إلى الماضى حيث يرتبط ما شاهدت قبلا بما حضرك وأنت أمام لوحته .

وهذا الرمز الذى يطبل له البعض ويزمر ، أليس فيه معنى يدركه العقل ؟ أهو مجرد ألوان فقط ، وقديماً قال الإمام الماوردى : « وربما استعمل الرمز من الكلام فى ما يراد تفخيمه من المعانى ، وتعظيمه من الألفاظ ، ليكون أحلى فى القلوب موقعاً وأجل فى النفوس موضعاً ، فيصير بالرمز سائراً فى الصحف مخلداً » . وعندى أن الشعر الجيد هو الذى يخاطب العقل والنفس معاً ، ولا خير فى شعر له نوطة تتناول النفس دون العقل ، والجيد الجيد هو الذى يجمع بين العقل والنفس . وجماع ذلك ما قاله قدامة : « أن يكون المعنى مواجهاً للغرض

المقصود غير عادل عن الأمر المطلوب » .

وجملة القول أن الشعر معنى ومبنى . سواء منه الرمزى والغنائى المطلق والمقيد والمقتصر على صفة واحدة لا يتناول غيرها ، يبين فيه النقص ويخرج عن حد الكمال والمقرر . ويكون مثله مثل تمثال عليه من الحلى والألبسة ما لا يستقيم مع الذوق والعقل . ويبهرك الشكل وتفوتك الروح . والمادة بلا روح باطلة والروح وحدها لا تدركها المادة ولا تفهمها على وجهها الصحيح (ويسألونك عن الروح . قل الروح من أمر ربى) .

والشاعر الحق هو الذى يجسم الجماد فينطقه كما فى قصيدة إسماعيل صبرى فى وصف الأهرام ومطلعها :

لا القوم قومى ولا الأعوان أعوانى إذا ونى يوم تحصيل العلى وانى

وكما فى قصيدة مطران ، فى ظل تمثال لرعمسيس الكبير ومطلعها :

يا صورة شبهت صخراً بإنسان ملأت من روعة قلبى وإنسانى[1]

وعلى ما تقدم أقول : إن الشعر الحى هو الذى يرقصك ويطربك ويملأ جوارحك وعقلك ، فتسير وراء خياله . بتناغم الكلمات وجلال المعنى والمبنى . ويبقى فى إحساسك ما يرفع النفس إلى عالم الرؤى والأحلام . وبعد هذا كله تعال معى ننظر فى شعر مترجمنا ؛ فماذا نرى ؟

هل كان الدكتور صروف ذا شاعرية ؟

هذا ما سأله المرحوم الأستاذ حنا خباز[2] . وما هى ظاهرات شاعريته ؟ قال :

« أما أنا فأرى أن المقتطف نفسه كبرى تلك الظاهرات . على النحو الذى رأى " هيغل " شعرية الوجود ؛ فقد ذهب أبو الفلسفة الحديثة إلى أن نظام

---

(١) أى إنسان العين . ناظرها .

(٢) المقتطف المجلد ١٢ ص ٣٣ والمقتطف ج ١ م ٣ ٧ ص ٤٣ .

الأفلاك الدوّارة وتلاؤم أجزائه وسعتها وترابطها ونواميسها شعريّة كونيّة يدركها المفكر الحصيف . وأرى فى نظام المقتطف وتبويبه واتساقه وأدبه وبيانه وصيغته على هذا النحو شعريّة لها فى نفوس قرّائه رنّة المعلقات وقد تزيد .

ويروى لنا المرحوم مصطفى صادق الرافعى الأديب الكبير أنه اطلع على قصيدة « الرفاش » [1] التى ترجمها الدكتور صروف عن الإنجليزية فى نسق سلس موشّح القوافى وفيها يقول :

مخازٍ توالت فصالت وصارت على اللحم دوداً وفى العظم سوسا

وسأله الدكتور بعد أن فرغ من قراءة القصيدة : « فى أى طبقة تعدنى من الشعراء » ؟ .

أجابه بعد تفكير قليل وإمعان النظر فى القصيدة : « فى طبقة الدكتور يعقوب صروف » .

وفى شاعرية مترجمنا يقول المرحوم العقّاد : « نظم شعراً كأجمل ما نظم العلماء فى الحكمة وسرّ الوجود » .

فأمام هذه الشهادات القيّمة تعال معى نسر الحوينا بين جداول شعره نتبين الشاعريّة فإننا ولا ريب نجدها فى ما اختترت من شعره ، فقد رأيت مائدته شهيّة فانتقيت ما وقع عليه النظر القاصر ، ومن ذلك المتخير تتبين الشاعرية فيه ، ولا عجب فى ذلك فهو ابن لبنان ولبنان قصيدة الدهر وهو شعر وروابيه قافية .

ونلمس فى قوله شيئاً من التنبؤ :

وللتطور أحكام مقرّرة والنفس والجسم فى الأحكام سيان
لا بد للعلم من يوم يفوز بما يُبَيِّن الحق فيه خير تبيان

---

(١) اطلبها فى المختارات .

ونرى فى زمننا هذا أن العلم سائر فى طريقه إلى كشف الحقائق المحتجب وراء اللامتناهى من هذا الكون العجيب الغريب، والعقل المولّد لمّا يزل يعمل بتؤدة. ولا بد للعقل الإنسانى المتزن من أن يتبين الحقيقة يوماً فيعرف سر الكون وما فيه . ويعرف الإنسان نفسه . فيكفّ عن الحروب وسفك الدماء ، والتمسّك بالوهم .

ولا بد من يوم تتضح فيه الحقيقة الذى عينين، وهنالك ، أجل هنالك يقف المرء مستعرضاً الماضى : فإما أن يقف مبتسماً طروباً وإما أن يقف حزيناً كئيباً .

ولا يفتر ثغره عن بسمة إلا إذا كان على صواب ، ولا ترف العين إلاّ على دمعة تذرف على دمٍ برىء سفك فى سبيل الجهل والوهم والكبرياء والعنجهية .

وعصرنا هذا هو عصر الذرة وفيه نرى العلم آخذاً بغزو الأجواء ، مستكشفاً متعرّفاً إلى ما تاقت النفس إلى معرفته . ولا ريب أن للعلم ظفراً قريباً ، يصل به إلى معرفة الحقيقة الناصعة التى ترينا أنفسنا عراة أمامها ، فهى التى لا تتجزأ وقد جزّأناها وذهبنا بها كل مذهب ، وزعمنا أننا على صواب ، فطاح رؤوس وجرت دماء وتنافرت قلوب ، وكتبنا فى سفر الحياة صفحات سوداء سيبيضها العلم الصحيح ولكن بدموع .

وأما وقد أشرفنا على دراسة الدكتور صروف وسبيلنا منها أن تبث فى قلوبنا روح محبة العلم وأعنى بالعلم ليس الأدب واللغة حسب، بل العلم الطبيعى وسبر غور الأرض لمعرفة ما فيها من الكنوز ، ثم الوثوب إلى النجوم والأكوان ، وقد شقّ الطريق وآن لأبناء الشرق ولا سيما العرب أن يستيقظوا من سباتهم الطويل ويشمّروا عن ساعد الجد والنشاط ويطلبوا المعرفة والانغماس بالعلوم التى تؤدى إلى الاختراع والاستنباط والكشف عما فى باطن الأرض من كنوز طبيعية كالنفط وغيره .

وقد رأينا فى بحثنا هذا ما للعلم من فوائد ، فعسى أن تكون الأجيال العربية

المقبلة أجيالَ بحثٍ وتنقيب وعمل، لا أجيال استسلام وتغنٍّ بالماضى ورحم الله ابن الوردى حيث قال :

لا تقل أصلى وفصلى أبداً
إنما أصل الفتى ما قد حصل

إن التغنى بأمجاد الماضى والوقوف عندها ، لا تبنى وطناً ولا تنشئ أمة ، ولا تثبت قدماً .

إن العصر الحاضر والعصور المقبلة هى عصور عمل واستنباط ، واستكشاف ، والدنيا لمن غلب .

واقتران العلم والشعر شىء جميل . وجميل جداً إذا تمكن المرء من أن يجمع بينهما ، والانصراف إلى دراسة العلوم أنفع وأجدى ، وقولى هذا لا يقدح بالشعر وناظميه فلكل إنسان موهبته ، عليه أن ينميها على ضوء ما يقدمه لنا العلماء من نظرات صائبة وأقوال حكمية نافعة ولله در من قال :

إذا كنت ذا رأى فكن فيه مقدماً
فإن فساد الرأى أن تترددا

ومن وضع يده على المحراث لايلتفت إلى الوراء ، وها إن الشرق قد وضع يده على المحراث فعليه أن يواصل العمل الصحيح المنتج فلا يلتفت إلى الوراء ، وعليه أن يشق طريقه صعداً إلى الأمام ، ليبنى على أنقاض الماضى مجداً أثيلا مبنياً على الفكر المولّد النيّر والعلم المستنبط ما هو مجهول عندنا موجود فى الطبيعة ، وما يكتنفها باطناً وظاهراً ، وكل من سار على الدرب وصل ؛ وهاهو ذا الغرب يقدّم لنا فى كل يوم شيئاً جديداً من المستنبطات العصرية فعلينا أن نأخذ عنه ولسان حالنا يقول :

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم
إن التشبه بالكرام فلاح

٨ ـ خاتمة

أما وقد أشرفنا على نهاية دراسة « يعقوب صروف » من كلّ نواحيه، فبات علينا أن نقول رأينا بالرجل ونرى ما كان يرمى إليه من وراء نشره المقالات الضافية ، علمية وأدبية ، وضعاً وترجمة وتلخيصاً ؛ وما هى الغاية من سهره الليالى الطوال فى سبيل البحث والتنقيب عن قضية علميّة ونظرية فكرية ؟ وما هى الخدمات التى أدّاها لأبناء الشرق عموماً سواء فى ذلك العرب والأعاجم ؟ وما هو الأثر الذى تركه فى نفوس قرّائه ؟ وما هى النهضة التى بعثها فى صفوف المتأدبين والمنصبين على العلم ، وهذا كله يدعونا إلى النظر فى ما جمعنا وكتبنا لنخلص من ذلك كله إلى الإجابة عما سألناه .

إن من يمعن النظر فى دراستنا هذه لا بد له من أن يستصفى زبدة فكرية طيبة المذاق ، زكية الشذا ، تحمل طلاّب العلم على الاقتداء به والسلوك فى الطريق التى اختطّها لنفسه ، ورائده الخدمة العامة ، وتحرير الفكر مما علق به من أدران عصر الانحطاط ، والتخلى عن كشف المغيّبات بطريقة « كشف البخت وضرب الرمل ومناجاة الأرواح »[1] والاستسلام إلى أساطير حاكتها الخرافة وتبناها الوهم . وهذه كلّها كادت تكون حقائق عند غير واحد من أبناء ذلك الزمن لو لم يقم رجال أفاضل مخلصون ذوو فكرٍ نيّر وخيال مجنّح ونظر صائب وجَلَد على البحث المنطقى والتنقيب المتواصل فى عصر تفتّح الذهن، عصر النهضة ، فأجلوا الحقائق ونسفوا جسور الوهم ، وقد كانوا بحمد الله كثراً فى مصر ولبنان وسورية والعراق وبعض الأقطار العربية . قد خدموا أبناء جلدتهم بما نشروا من مقالات ونظموا من قصائد بعثت فى الصدور نفحة قدسيّة ، أهابت بأبناء الجيل إلى الدرس المتتابع ، والبحث العلمىّ المنظم ، فكانت

---

(١) راجع المختارات .

لنا هذه النهضة العربية المباركة التى مازالت فى سيرها تجدّ وتعمل ، وتسعى للوصول إلى الهدف الأسمى ، نابذين ثوب الكسل الذى تردّوا به زمناً ، وليس الذنب ذنبهم ، وإنما كان ذنب السلاطين والملوك الذين تسلطوا على هذا الشرق ؛ فنشروا الظلام والجهل والفوضى والخنوع فى طول البلاد وعرضها من المحيط إلى الخليج . فعشش الوهم والخرافة فى عقول كثير من أبنائه .

وما كاد يسطع نور الغرب فى ظلمة الشرق حتى رأينا المدارس تعجّ بطلاب العلم تترشف أطايب المعرفة وتستوعب ماتقدمه المطابع من كتب ومجلاّت وجرائد ، ليس باللغة العربية حسب ، بل بلغات الأجانب ولا سيما الفرنسية والإنجليزية والألمانية والروسية والأسبانية والإيطالية ، إلى غير ذلك من لغات الأمم ، فأثرت فى العقول وحررت بعضها ، وقضت على كثير من الأساطير ، وأخذ نقاب الجهل ينزاح شيئاً فشيئاً .

وهنا يحطّ بنا المطاف لننظر بقيمة أبحاث « صرّوف » العملية التى نشرها فى مجلدات مقتطفه ، وقد اخترنا منها ماتيسّر لنا من المختارات التى يراها القارئ فى آخر هذه الدراسة .

ولا ريب أن الغاية التى رمى إليها مترجمنا فى أبحاثه العلمية هى القضاء على ما خلّفه عصر الانحطاط ولا سيما العصر العثمانى من الجهل المدقع فى المجتمع العربى جملة . والخرافات التى تشبّث بها المشعوذون وراحوا ينشرونها بين السواد الأعظم من أبناء العروبة . حتى صارت عند البعض حقائق تصعب إزالتها ، كالكتابة السحرية وغيرها . وإن نحن ألقينا نظرة تاريخية على ذلك العصر رأينا التخلف عن ركب الحضارة الغربية التى أخذت بكل ما عندها من قوة تبحث فى نهضتها العلمية فى سائر فروع العلم والمخترعات والمكتشفات ، ونحن عنها غافلون ، وما أحرانا أن نأخذ بقول المرحوم إسماعيل مظهر ، صاحب مجلة العصور ، « يعقوب صروف » قال : « كانت غايته تلقيح الأفكار القديمة بأفكار جديدة ، وتغيير الأساليب القديمة بأساليب جديدة . وقتل العادات العتيقة التى نكب بها الفكر بعادات تلائم مقتضى الزمان والمكان . وذلك عن طريق تفهّم الجديد

من المبتكرات العلمية والفنية والعملية ونقلها بالترجمة إلى عالمنا يجهلها »[١]، فيؤخذ من قوله هذا أن مترجمنا كان يعلم علم اليقين أن الشرق لا يقدر أن يلحق بركب الحضارة الغربية إلا عن طريق ترجمة العلوم الطبيعية إلى اللغة العربية وتسهيلها ما أمكن لتكون بمتناول الخاصة والعامة من أبناء هذا الشرق العربي.

وإن نحن أجلنا الطرف ببسائط علم الفلك رأيناه يجمل نظرية « بطليموس » قبل أن يأخذ بنشر نظرية « كوبرنيكوس » وقد برهن على بطلان نظرية « بطليموس »[٢]. والناظر فى كتاب « أعلام المقتطف » يلمس الناحية التى أرادها ، وهى بث محبة العلم فى أفئدة أبناء الجيل والانصراف إلى الأبحاث العلمية والكشف عن الحقائق التى مازالت فى ضمير الطبيعة . ولا نكران على أن العرب فى عصورهم الذهبية أيام الدولة العباسية كانت لهم علوم واكتشافات علمية ، فى حين كانت أوربا تغط فى جهلها وذلك بشهادة أحد علمائهم الأعلام جورج سارتر G. Sartar وهو من أكابر مؤرخى العلوم قال : « إن العالم مدين للعرب بأنهم حافظوا على التراث اليونانى أولا ، وبما أضافوه عليه من مبتكرات عملية ونظرية ثانياً ، وبنقلهم هذا العلم مع تلك الزيادات المبتكرة إلى الغرب ثالثاً . . . أما اللغة العربية فكانت دون جدال لغة العلم والفلسفة والتجارة من القرن التاسع إلى القرن الثانى عشر ، وحفظت هذه اللغة تراث العالم العلمى . وحافظت عليه ونقلته حتى الصين شرقاً وحتى الأندلس غرباً »[٣] .

وكذلك قال المستشرق الفرنسى « عمانوئيل سيديو » : « إن الكنوز الأدبية العلمية التى أوجدها العرب فى ذلك العصر ، ونتاج نبوغهم العلمى . واختراعاتهم الثمينة ، تنهض دليلا على نشاطهم الفكرى . وتؤيد الرأى أن العرب هم أساتذتنا فى كل شىء إذ أنهم زودونا بمواد جليلة القيمة فى تاريخ العصور الوسطى . وبأسفار مجيدة فى التراجم ، وتركوا لنا صناعة لامثيل لها ، وفناً معمارياً فى غاية الروعة

---

(١) المقتطف عدد أبريل سنة ١٩٢٨ ص ٤٢٢ .

(٢) نظر المختارات .

(٣) الدكتور نبيه أمين فارس فى مجلة « العلوم » كانون الثانى سنة ١٩٥٧ ص ٢٨ و ٢٩ .

والجمال، واكتشافات هامّة فى الفنون والصناعات »[١] ؛ وعلى ما كان للعرب من تراث علمى رغب « صروف » فى إحياء ذلك المجد العلمى التليد وتسليمه إلى الأحفاد أمانة ، وإيقاظهم من سباتهم الذى طال ، وطال حتى كاد يقضى على الهمم ويميت العزائم فبعث فى القلوب النشاط ، وأنار مصباح العلم بما نشر فى مجلدات « المقتطف » من الأبحاث القيمة ، فكان المعلّم الأوحد المتجوّل يبثّ المعرفة فى كل مكان نطق أهله بالضاد ؛ والناظر فى صفحات « المقتطف » يجد أن مترجمنا قد عمد إلى نقد النظريات العلمية وشارك أساطين العلم فى أبحاثهم ؛ وقد عرضنا إلى ذلك فى دراستنا هذه وأبنّا جملة صالحة من اعتقاده ، بأن البحث العلمى المركز يبين الحقيقة ناصعة بطريق المنطق والاختبار ، فأبحاثه فى السحر والتنويم المغناطيسى ومناجاة الأرواح[٢] ومذهب النشوء والارتقاء ، كلها أسفرت عن آراء مصيبة ولا سيما « مذهب النشوء والارتقاء ، وكان أكبر الآخذين به والمدافعين عنه فى مصر الدكتور شبلى الشميل وسانده بآرائه مترجمنا وأفسح له صفحات مقتطفه . فقامت حركة صحفية قوية بين أدباء العرب وتصدى لهذا المذهب والرد عليه « الأب لويس شيخو اليسوعى » فى مجلة « المشرق » وكذلك العلامة جمال الدين الأفغانى وغيرهما ، وما زال « صروف والشميل » على رأيهما لم يحيدا عنه ألبتة حتى يقتنعا بفساده ، على أن « صروفا » لم يكن يتشبث برأيه عندما تظهر له الحقيقة . ومن أقواله : « المناظر والنظير مشتقان من أصل واحد فمناظرك نظيرك ، أما الغرض من المناظرة فهو التوصل إلى الحقائق ؛ فإذا كان كاشف أغلاط غيره عظيما كان المعترف بأغلاطه أعظم » . ونلحظ فى مجمل كتاباته أنه لم يدّع المعرفة بل بالعكس كان متواضعاً معترفاً بالخطأ عند بيانه آخذاً برأى الخصم شاكراً له ، وكان إذا ما أخذ برأى علمىّ يسنده إلى صاحبه عملا بالأمانة العلمية ، غير مدعيه لنفسه شأن غير واحد من أبناء هذا الجيل الذين يسرقون آراء الغير ويدّعونها لأنفسهم .

---

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى لسيد أمير على ص ٥٩٣ .

(٢) راجع المختارات .

قد يسأل سائل ، أكان « صروف » عالماً بعلم لا يتعداه إلى غيره أوكان مشاركاً بكل العلوم الرياضية والطبيعية ؟ وللإجابة عن ذلك لا بد لنا من الرجوع إلى عصره ، فنرى أن الأدباء والعلماء كانوا أندر من النادر ، فالعالم فى ذلك العصر كان ممّن يعرف الصرف والنحو والبيان والمنطق ومشاركة فى الأدب والتاريخ والجغرافية ونزر ضئيل من الحساب ، ولما اتصل الشرق بالغرب بدأ النور فى ذلك العصر ضعيفاً ؛ فكان من الواجب على المتعلّم والمتأدب أن يلم بجميع أنواع المعرفة ولا سيما بما كان يأتينا به الغرب من آراء ومكتشفات ونظريات علميّة ، فبات من العدل ألا ينصرف « يعقوب صروف » إلى فرع واحد من العلوم ، بل آثر أن يخوض بحر العلوم المختلفة بجهد وعقل نيّر وبحث متواصل ، وحبّ أصيل لنشر المعرفة بين أبناء العرب عامة ، فأخذ يتناول مجارى المعرفة المتنوعة يضمنها صفحات مقتطفه ، مما لايسعنا إلا أن نقر ونعترف بما له من فضل فهو أحد رائدى النهضة العلمية الطبيعية والرياضية فى الشرق كله ، أو هو فى طليعتهم ، فكان لعمله هذا المجدى أثر طيب فى نهضتنا هذه التى لما تزل آخذةً فى النمو والتطلع إلى الأمام .

ونحن فى عصرنا الحاضر أحوج ما نحتاج إليه هو الانصراف إلى العلوم الرياضية والطبيعية على اختلاف أنواعها ، وإلى التخصص لنكتشف أسرار الطبيعة ، ونعمد إلى تأسيس لمختبرات ، فنخترع ونبدع ، ونظهر ما فى أرضنا من كنوز مدفونة ، ما زالت فى جوفها تنتظر أبناءها ليميطوا اللثام عنها والإفادة منها ، فالأوطان لا تحيا إلا بإظهار كنوزها المدفونة ؛ والمستنبطات وهى ما زالت طىّ الخفاء كثيرة تنتظر العقول النيرة من أبنائها المخلصين للعلم وحده . فالأقوال عندنا كثيرة والتبجحات متوافرة ، والتغنى بأمجاد الماضى متخمة ، وكلها لاتغنى بل تفقر ، ولا يؤخذ من قولى هذا أنه يجب أن نتجرد من الماضى ، كلا وإنما أريد أن أتمثل بقول القائل :

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيها

فعلينا أن نفيد من حاضرنا ونبنى للمستقبل ، وقد شق لنا الطريق أناس مخلصون ، فهل نخاص نحن للحقيقة ، ونعرف أنفسنا ونحرّرها من آثار ماعلق فى الأذهان من مخلفات عصر الانحطاط والاستسلام للقدر ، فنكون عمليين غير اتكاليين ؟

وما قصدت من دراستى هذه « ليعقوب صروف » إلا أن أصرف العقول إلى الطبيعة التى نعيش فيها ، فنبحث أسرارها ونتبين ما فيها ، وليس من العدل فى شىء أن نبحث المغيبات ونترك ما نحسه ونلمسه ونطأ عليه ، فالعلوم التى يحتاج إليها الشرق العربى عامة هى الطبيعيات على فروعها والرياضيات[1] على أنواعها وفن التعدين والهندسة العملية وغيرها من العلوم التى ترينا أسباب الراحة وحفظ الأوطان من الأعداء مجسّمة أمام أعيننا .

لقد عبّد لنا « يعقوب صروف » الطريق فلنسر متكلين على جهودنا وإخلاصنا وذكائنا وصبرنا آخذين بأسباب الحضارة مخلّفين وراءنا الماضى سالكين سبل الجديد الحاضر من كل شىء ، عالمين أن أشياء كثيرة فى الكون مازالت مجهولة فلا يكشفها غير أبناء الأجيال الآتية ، ومن وضع يده على المحراث لا يلتفت إلى الوراء .

وللدكتور « جميل صليبا » كلام جيد فيما أنا بسبيله قال : « لقد اعتمدنا حتى الآن فى إحياء ثقافتنا العربية على الجهود الفردية ، أكثر من اعتمادنا على العمل الجماعى . ولكن الجهود الفردية لاتؤتى أكلها إلا إذا كانت معرفة الوسائل محددة الغايات . إن هنالك صحفاً ومجلات تظهر وتغيب كالشهب فلا تعيش أكثر مما يعيش زهر الربى ، كما أن هنالك نوادى ثقافية وجمعيات علمية وفنية لا تنتج شيئاً لقلة وسائلها المادية ، ولا ينجيها مما هى فيه إلا تنظيم جماعى تشرف عليه الدولة فى كل قطر عربى ، فعلى كلّ دولة عربية أن تشجع على البحث العلمى وأن ترعى التقدّم الأدبى والفنى ، وأن تنشئ قصراً للثقافة أو مركزاً للبحث العلمى ، يتولى تنظيم الجهود الفردية

---

(١) راجع المختارات .

ويعمل على تقدم العلم وتطوره »[١] ، وهذا ما يعوزنا فى نهضتنا هذه ، وهذا ما نأمله ونرمى إليه ، إن كنا نريد خير مجتمعنا .

ولكى نتبين أهمية العلوم الرياضية وما لها من أثر جليل ، فما علينا إلا أن نمعن النظر فى مقالة « العلوم الرياضية ، منافعها وغرائبها »[٢] فتتضح لنا أهميتها ، والسبيل الذى سلكه الآخذون بدرسها فكانت لهم هذه المخترعات الحديثة والاكتشافات القيمة التى نشاهدها بأمّ أعيننا ونلمسها بأيدينا ، ولا مندوحة لنا عنها لإنهاض مجتمعنا . فسبيلنا إذن ونحن على أبواب مستقبل متفتّح أمامنا أن نسلك طريق الأمم الراقية المبدعة ، التى تأتينا فى كلّ يوم بمخترع جديد يدهش له الفكر ويحار بأمره العقل ، وخير ما يحتاج إليه أبناء الجيل الحاضر ، ليسلموه إلى من بعدهم هو التوجيه الصحيح ، وإفساح المجال للنوابغ الذين يتمتعون بقوى عقلية اختراعية واكتشافية ، والنظر الصائب بأمر تشجيعهم على التخصص ، وبمنحهم المساعدات التى تهيب بهم إلى مواصلة الدرس والبحث ، وجدير بالشرق عامّة أن يركّز جهوده على هذه العلوم جملة من كل نواحيها عمليًّا ونظريًّا ، ولا ريب أن أكثر الاختراعات التى منها أعظم المنافع للبشر هى ناتجة عن العلوم الرياضية « وكلّ من سار على الدرب وصل » وهو آخر ما يرجوه المخلصون لوطنهم وأمتهم » .

٩ – أقوال الأدباء والمفكرين فيه

قال المرحوم الأستاذ منصور جرداق : أستاذ علم الفلك فى الجامعة الأمريكية :

« اتصف الدكتور صروف منذ صغره بسموّ المواهب العقلية ، فقد كانت لديه دروس الرياضيات الابتدائية والطبيعيات كالحساب والجبر والهندسة والمثلثات

---

(١) محاضرات الندوة نيسان سنة ١٩٥٧ النشرة الرابعة ص ٣٠٠ .

(٢) طلبها فى المختارات .

والكيمياء والفلسفة الطبيعية وعلم الفلك، بمثابة قراءة القصص التاريخية والفكاهية ومسائلها وقضاياها بمنزلة الأوّليات ، فلم يكن يجهد نفسه بدرسها وهو طالب " تلميذ " إلاّ قليلاً لأنها كانت سهلة عليه واضحة وجلية فى ذهنه بينما كان غيره من أبناء صفه يتعب كثيراً فى درسها ، ويصرف معظم وقته فى تحضيرها والاستعداد لها » .

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ٤١٧)

وقال المؤرخ المرحوم عيسى إسكندر المعاوف :

« لكنه مع كلّ تفرعات مباحثه وتوسعه فى فنون الصحافة التى خصّت بها المجلات الكبيرة . ووقوفه على ما يكتبه أرباب المجلات الأجنبية الكبرى ومكاتبوها ، قد أبقى لنفسه حصّة وافية من تحليل الألفاظ ونقه اللغة والأوضاع وإرجاع الكلمات إلى نصابها وإصابة الرأى بمعرفة مظانّها ، فأبدع فى ما أنشأ أو ما اختار من الكتابات والمعرّبات إلى غير ذلك مما لا محل لتفصيله الآن ، فنترك الحكم فيه لمطالعى المقتطف وكلهم من العلماء الأعلام والأدباء العظام » .

(المقتطف ج ١ مجلد ٧٣ ص ١٨٨)

قال المرحوم عباس محمود العقاد :

« حفظ شعراً كثيراً ، كان يضعه أحسن الوضع فى أماكن الاستشهاد من مقالاته الوصفية ، ونظم شعراً كأجمل ما نظم العلماء فى الحكمة وسرّ الوجود » .

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ٣٣)

قال المرحوم جبر ضومط :

« عرفته فى صباى معلماً فى برج صافيتا ، وعرفته فى فجر شبابى أستاذاً ومعلماً فى الكلية الأمريكانية فى بيروت ؛ ثم فى المقتطف وأخيراً عرفته فى مصر فى المقتطف أستاذاً ومعلماً ثم دكتوراً معلماً ، فما زلت إذن منذ صيف سنة ١٨٩٦ إلى أن توفاه الله تلميذاً محبّاً لهذا الأستاذ الخالد ما خلد علمه وأدبه وفضله » .

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ٢٨٧)

وقال الأستاذ فهر الجابرى :

« الدكتور يعقوب صروف ، أغنى لغتنا المبينة ألفاظاً وتعابير أو أفكاراً وتصانيف لم تكن معهودة فى سابق العهد ، وكلّ ذلك بقدر وافٍ لا ينكر » .

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ١٥٦)

قال الدكتور شخاشيرى :

« المقتطف شيخ المجلات ومن ينكر على هذه المجلة النافعة خدماتها للعلم وللشرق وللغة ؟ إنها اشتغلت خمسين عاماً جادة مخلصة فى عملها وكم هو جميل من أدب مصر أن يحتفل بمجلة العلم والأدب والأخلاق فصر جديرة بمثل هذا الاحتفال » .

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ١٢)

وقال المرحوم مصطفى صادق الرافعى :

« ثبت شيخنا (يعقوب صروف) على ذلك عمر دولة من الدول فى خمسين سنة ونيف يضرب قلمه فى السهل والصعب وفى الممكن والممتنع . وإنه ليمرّ فى كلّ ذلك مرًّا لا ينثنى . ويحذو حذواً لا يختلف . كأن الصعب عنده نسق السهل ، والممتنع صوغُ الممكن ، فلو قلت إنه بنى فى أصل خلقه وتركيبه على أن يكون قوة من قوى التحويل لتحقيق المشابهة العقلية بين الشرق والغرب لما أبعدت ، ولو زعمت أن ذلك القلم الحىّ لم يكن إلا عرقاً فى جسم الإنسانية لكان عسى » .

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ٢٣)

قال المرحوم الأستاذ إسماعيل مظهر :

« مهما يكن من أمر هذه الصورة التى صوّرت بها ذلك الجهد الكبير الذى بذله الدكتور العظيم ، فإنى لأعتقد اعتقاداً لا يوهنه الشكّ بأن المستقبل كفيل بأن تتضاءل هذه الصورة أمام أمله إذا اكتملت فى العقول كفاءة

القياس التاريخىّ وأدركوا أن اسم " صروف " ينزل من تاريخ الشرق منزلة الحركات الفاصلة فى تاريخ الفكر الإنسانى » .

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ٤٢٧)

قال المرحوم الدكتور منصور فهمى :

« كان الفقيد عالماً مدققاً مخلصاً للعلم لا ينحرف عن الطرائف العلمية فى كتاباته ومباحثه، لكنه مع ذلك ظل يرعى فى وجدانه حرارة الإيمان بالروح وعالمها الآخر » .

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ٥٥٩)

قال أسعد لطفى « رئيس نقابة الموظفين » :

« كان من البنائين الأحرار الذين كوّنوا مجدهم على سواعدهم ، هبط أرض مصر ، ومصر مهبط العلوم : فاقتطف لها من ثمار المعارف حديقة غناء هى المقتطف » .

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ٥٦١)

وقال المرحوم أحمد شوقى من قصيدة :

ألا فى سبيل العلم خمسون حجةً
مضت بين تعليم وبين طلابِ
قطعت طوالى ليلها ونهارها
بآمال نفسٍ فى الكمال رغاب
رأى الله أن تلقى إليك صحيفة
فنزهتها عن هوشة وكذاب

• • •

مشينا بنورَى علمها وبيانها
فلم نسرِ إلا فى شعاع شهاب

وقال المرحوم الدكتور هيكل :

« إن حياة المغفور له الدكتور صروف تتلخص فى مجلة المقتطف ؛ فلقد عاش هذا الرجل صحفياً بمعنى خاص غير المعنى الذى يتبادر إلى الأذهان من كلمة صحفى ، عاش صحفياً متخصصاً لناحية معينة هى نشر العلم وتوطئته على لسان الصحافة » .

(المقتطف المجلد ٧٢ ص ٥٧١)

ومن قصيدة للمرحوم حافظ إبراهيم :

صروف لا تبعد فلستَ الذى
يطويه طاوي ذلك المضجع
أسكتك الموت ولكنه
لم يسكت الآثار فى المجمع

* * *

إلى هنا يحطّ بنا المطاف بدراسة رجل عرف وعلم وعاش فأفاد ، وترك وراءه أثراً خالداً من مجلدات المقتطف التى تزيد على ثلاثة وسبعين مجلداً ، جمعت من علوم العصر وآدابه ومخترعاته واكتشافاته ما لو تجرّد أحد إلى فهرسته لظفر بدائرة علوم تنطق ببذل جهود خمسين سنة ، مضت بين المحابر والأقلام والبحث والتنقيب والتقميش .